

نظرة عابرة على تاريخ مدارسنا الزاهر

المفتي محمد رفيع العثماني

رئيس جامعة دارالعلوم بكراتشي

نص كلمات المفتي محمد رفيع العثماني - المفتي العام لجمهورية باكستان الإسلامية - ورئيس جامعة دارالعلوم بكراتشي، وعضو المجلس التنفيذي لمنظمة وفاق المدارس العربية بباكستان - التي ألقاها ككلمات الترحيب في حفلة التقدير والتكريم المنعقدة تحت إشراف منظمة وفاق المدارس العربية بباكستان في إسلام آباد في ٣ يونيو عام ٢٠٠٧ الميلادي يوم الأحد، بمناسبة زيارة سماحة الدكتور فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المشرفة لجمهورية باكستان الإسلامية. — [الإدارة]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين -

وبعد: فلما من دواعي الغبطة والسرور: أننا اليوم نستقبل في بلدنا الحبيب باكستان إمام وخطيب المسجد الحرام فضيلة الشيخ عبدالرحمن السديس الموقر - حفظه الله عز وجل - الذي جعل الله - عز وجل - حُبّه جليس الأئمة، وقرين الأرواح وأحلّه سويداء قلوب المسلمين في كل مكان - والحق يقال، أننا لا نجد ما نعبّر به من عبارة وأسلوب عما في صدورنا من مشاعر وعواطف وانطباعات في شأن فضيلتكم إلا أن نحاول محاولة ضئيلة أن نتقدم بأحرّ التهاني، وأجمل التبريكات إلى فضيلتكم -

فضيلة ضيفنا المبجل! إن الإستعمار الإنجليزي الغاشم الجائر لما استولى على شبه القارة، لم يزل مكباً على استخدام وسائل مأكرة، وتدمير خطل خبيثة لمحو آثار المسلمين، وإبعادهم عن هدى الإسلام، وتعاليمه النيرة، فوضع في البلاد الهندية نظاماً سلب به الأفكار الزائفة، والنظريات الباطلة، والحضارة الغربية الهندية نظاماً وأذهان الشعب المسلم في الهند، ففي هذه الظروف القاسية أصابت هذه البلاد رحمة ربها حيث ألهم الرشد عصابة من عباده الصالحين، أمثال الشيخ محمد قاسم النانوتوي، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، رحمهم الله - فأدرك هؤلاء الرجال الأبرار الحاجة الماشئة إلى الكفاح، والودود عن حريم الدين

تقوم، والحفاظ على العلوم الدينية والمعاليم الإسلامية في الهند، فقاموا ضد هذا الغزو الفكري، وصمدوا أمام
تشارته الهدامة، وأعاصيره العاصفة، فوضعوا حجر أساس المدرسة بقرية "ديوبند"، فهذه المدرسة بدأت
مدرسة صغيرة لا تسترعي الإهتمام، ثم لم يزل نطاقها يتسع ويضخم، وصيتها يذيع بفضل إخلاص أهاليها
وصلاحهم وثقافتهم، وزهدهم في حطام الدنيا، وإعراضهم عن الفخخة حتى أصبحت كبرى الجامعات
الدينية في قارة آسيا، وسُميت أزهر الهند، واشتهرت باسم "دار العلوم ديوبند" في أنحاء العالم كله.

وهذه الجامعة "دار العلوم ديوبند" أدت دوراً تاريخياً مرموقاً في المجال التعليمي والتربوي، فأنجبت
رجالاً نبغوا علماء ربانيين مفسرين، ومحدثين، وفقهاء، مثقفين، ومفكرين، وأدباء مهرة بارعين يجمعون
بين العلوم النبوية العميقة، والعمل بتوجيهاتها القيّمة، يرسمون في مختلف مجالات الحياة صوراً رائعة
من التقوى، والصدق، والإخلاص، والتوكل، والصبر، والشكر، والزهد في الدنيا.

ومن سماتهم المميزة البارزة: أنهم يتمسكون بأذيال السنة النبوية، ويذلون في إحياؤها كل
ماتمد إليه أيديهم من نفس و نفيس و جليل ودقيق كما أنهم يخالفون كل بدعة في كل مكان
يتحتملون كل خسارة في دمعها، ليحافظوا على دين ربهم الخالص: شعائهم، وعقائدهم،
عباداتهم، وأخلاقهم، وقيّمهم الدينية.

فهؤلاء النجوم الثاقبة والأعلام النبلاء، إنتشروا إلى أقطار الأرض، ونشروا الدين القويم وسلكوا
ببيل آبائهم الأمجاد، فهذه الشبكة التي تزونها شبكة الجامعات، والمدارس في باكستان حلقة من
قوات تلك السلسلة المباركة.

سماحة ضيفنا المكرم! لما برزت باكستان على خريطة العالم كان لزاماً عليها أن تضع
نظاماً تعليمياً ينبثق من الكتاب، والسنة، والقيم الإسلامية من ناحية، ويُسعف الحاجات المُتطلّبة
للعصر الراهن من ناحية أخرى، فيكون نظاماً منهجياً شاملاً يجمع بين العلوم الإسلامية التربوية التي
تحافظ على عقيدة الإسلام وشرعيته، والعلوم الحديثة، والعصرية التي تضمن تطور الوطن الجديد،
رؤيته في مجال التقنية، والإمكانيات المادية، والكشف عن الثروة الوطنية، واستخدامها في صلاح
أمة، ومسيرة الأمم المتقدمة في مجال الأجهزة الحديثة.

ولكن مع الأسف الشديد، لم تتحقق هذه الأمانة، لما وقع الوطن الإسلامي في ورطة المعاناة
مديدة بعد عدة أعوام بعد استقلاله من قبل تجاذب الأحزاب المختلفة إلى يومنا هذا.

فمازالت الكليات والمدارس الرسمية تُنسى دراساتها على نفس المنهج الذي وضعه الاستعمار
إنجليزي، وأما العلوم مجرد اسمها دون أن سد الفجوة التي تتطلبها مصلحة الشعب والوطن.

ثم إنه لا يكفي أن يوضع في المعاهد التعليمية نظام يكفل تدريسي العلوم فقط، ولا يعنى بالتربية الإسلامية بل

يجب أن يكون هناك نظام يجمع بين الدراسة والتربية الإسلامية، فإن الدراسة العارية عن التربية الإسلامية لا قيمة لها ولا وزن. فَيَمَّا أن المدارس الحكومية كانت عارية عن هذا الهدف السامي وهذه الغاية المنشودة اتجاء العلماء وإلى إنشاء معاهد تعليمية مستقلة، وأن يتجهوا فيها منتهج التربية المتوارثة في المدارس الدينية منهاجاً لا يكفل تدريس العلوم الإسلامية فحسب، بل يهتم بالتربية الإسلامية والتثقيف الديني أيضاً اهتماماً بالغاً، فأخذوا يُنشئون مدارس، وجامعات دينية على الشاكلة القديمة في أنحاء الوطن كلها، ويهتمون فيها بتربية الناشئة الجديدة الإسلامية وتثقيفها بالثقافة الإسلامية كما يقومون فيها بتدريس العلوم الإسلامية.

ضيفنا الكريم! لم يكن هناك نظام يربط هذه المدارس والجامعات الدينية، ويؤدي إلى تعزيز، وتدعيم أواصر، وعلاقات التضامن، والتكاتف، وتوحيد الصفوف بين أبنائها، فقام كبار العلماء الأفاضل أمثال فضيلة الشيخ محمد يوسف البنوري، وفضيلة الشيخ المفتي محمود رحمهم الله فرشحوا انتباههم، ووجهوا عنايتهم تُجَاه هذه المهمة، وأسّسوا منظمة تعرف باسم "وفاق المدارس العربية، والجامعات الإسلامية" لتُشرف على المدارس والجامعات كلها في باكستان، وذلك قبل تسع وأربعين سنة.

فبارك الله عزوجل في هذه الشجرة الطيبة، فأنتها نباتاً حسناً، حيث تطورت هذه المنظمة يوماً فيوماً، ولا تزال تتطور حتى أصبحت اليوم أكبر مؤسسة تعليمية في باكستان حيث تقوم على كيان منهجها التعليمي المتكامل كما لا تزال تنضم إليها مدارس وجامعات أهلية من أول يومها من كل ناحية من نواحي باكستان، حتى تجاوز عددها عشرة آلاف وخمسة مائة، وبلغ عدد الدارسين والدارسات فيها حوالي مليون ونصف. وذلك بفضل الله عزوجل وكرمه.

ومن أكبر الجامعات المنضمة إليها جامعتنا الحبيبة "جامعة دارالعلوم كراتشي" التي أسسها المفتي الكبير بالديار الباكستانية سابقاً المفتي محمد شفيع الديوبندي. رحمه الله. وهذه هي المنظمة "وفاق المدارس العربية" التي انعقدت هذه الحفلة الميمونة تحت رياستها، وهؤلاء العلماء هم القائمون بها، والمسئولون عنها. وفي الختام نقدم إلى فضيلتكم الشكر الجزيل باسم جميع القائمين بهذه المنظمة، وجميع أبناء المدارس والجامعات، حيث أسعدتمونا بقلوبكم الميمونة إلى بلدنا الحبيب، ونرجو فضيلتكم أن تذكرونا في دعواتكم الصالحة في البقاع المقدسة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم في الله

محمد رفيع العثماني

رئيس جامعة دارالعلوم بكراتشي والمفتي بها

عضو المجلس التنفيذي لمنظمة وفاق المدارس العربية بباكستان

☆☆☆☆☆